المهدي النور

سوء فهم

كان يا ما كان، في قديم الزمان، أسرة تتكون من أم وأب وثلاثة إخوة ذكور وأخت كانت أكبرهم. من بين الإخوة الذكور، كان هناك طفل صغير ذو سبعة سنين من عمره. هذا الأخير لطالما أحب الكتابة على السبورة بالطباشير. فقد كانت لديه واحدة يكتب عليها كلما سنحت له الفرصة، خاصة بعد عودته من الدوام المدرسي، فيأخذ بذلك دور الأستاذ لنفسه.
ذات يوم صباحًا، عندما كان هذا الطفل يكتب في السبورة في غرفته الخاصة كما جرت العادة، أراد أن يمسح ما دونه فلم يجد الممحاة المخصصة لهذا الغرض، فطلب من أمه أن تعطيه منديلًا أو شيئًا من هذا القبيل لكي يستعمله بدل الممحاة الضائعة. لكن الأم كانت منشغلة ببعض الأمور المنزلية التي لم تجد منها مناصًا، لذلك لم تعر الطفل أي اهتمام. في المقابل ابنها بنزعته الطفولية التي تتميز بالرغبة في الحصول على أي شيء يريده في الحين (غياب مفهوم الزمن)، فهو كما يصطلح عليه في سيكولوجية الطفولة، متمركز حول ذاته فقط (Egocentrisme)، لا يحتوي في قاموسه على شيء اسمه متطلبات العالم الخارجي أو أخذ بعين الاعتبار ظروف الآخرين، بتلك النزعة استمر طوال اليوم في تكرار طلبه على الأم دون أن يكل أو يمل أو تبدو عليه علامات الاستسلام. تواصل الأمر إلى أن فاض صبر الأم كما يفيض البركان بعد أن استمرت حممه في الصعود شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى أعلى القمة. حينها قالت لطفلها وعلامات الرفض تبدو على محياها -اذهب واقطع من ذلك الغطاء الفاخر. . . -. لو كنتَ شخصًا راشدًا لفهمت حينها من كلام الأم أنها قصدت عكس ما قالت -إياك أن تقطع من ذلك الغطاء. . - لكن الطفل آنذاك لم يصل بعد إلى المرحلة التي يصبح فيها قادرًا على فك

رموز الكلام وفهم ما وراءه. لذلك تعامل مع كلام الأم بظاهره لا بباطنه، فذهب وقص من ذلك الغطاء الفاخر جزء استعمله كممحاة لسبورته. في تلك اللحظة، عندما لاحظت الأم ما قام به، ثارت كما يهيج الثور عندما يرى اللون الأحمر، فكان طفلها بمثابة اللون الأحمر الذي ما إن تراه حتى تهجم عليه بكل عنفوانها. تفجر غضب الأم فتوجهت ناحية الطفل وبدأت في -قَرْصِهِ- في المكان السفلي من أرجله، وهذه خصوصية ثقافية تمتاز بها الأم المغربية على وجه الخصوص (وبالتدقيق بعض الأمهات، فالأمهات المغربيات أمهات وليست أم واحدة فقط)، ولا يدل هذا الفعل بالضرورة على عدم الحب، بل قد يكون عكس ذلك تمامًا، تعبيرا عن الحب بالعنف.

هنا الطفل أخذ بظاهر الكلام الصادر عن الأم كما هو، دون زيادة أو نقصان، دون تحليل لما وراءه، ودون غوص في الأعماق. لكن الأم كذلك أخذت سلوك الطفل في جزئيته دون أن تأخذ بعين الاعتبار خصائص المرحلة التي يمر منها، فغاب بذلك التواصل بين الطرفين. وعندما يغيب التواصل يتولد عنه سوء الفهم، وبالتالي مشاكل لا حصر لها، تتراكم فوق بعضها البعض إلى أن تصل إلى قمة الجبل، فتسقط هاوية نحو الأرض محطمة كل من يمر في طريقها. وليس من الممكن دائمًا أن ندرك حساسية الأمر في جميع الأحوال وفهم إشارات ما يحصل في الحين. حصول ذلك رهين ببنائنا جسرًا للتواصل (جسر التواصل)، على أن يكون هذ الجسر مليئًا بقيم التسامح حتى لا يؤول إلى السقوط. فحتى لو كان ضيقًا في الحجم، قد يمر منه الكل إذا كان مشبعًا بقيم التسامح.

في إحدى القصص اليابانية، يمر طفلان من جسر معين في الاتجاه المعاكس لبعضهما البعض، كان كل واحد منهم يحمل مظلة يحتمي بها من المطر،

عندما وصل الطفلان إلى نقطة الالتقاء في الجسر، أزاح الأول مظلته وأفسح الطريق للثاني كي يمر، حينها استطاع الثاني أن يمر كذلك دون اصطدامات أو عراقيل، فهنا كان التواصل إيجابيًا، ولو بدون كلمات. قد تبدوا هذه القصة اليابانية بعيدة كل البعد عن القصة المغربية التي ذكرتها في البداية. لكن لو كانت الأم طفلًا في القصة الأولى، لفهمت هي الأخرى سلوك ابنها على حقيقته وليس كما أرادت له أن يكون. آنذاك كان ممكنًا أن يمر جسر التواصل الإيجابي بين الطرفين، ولفهم الوضع في عُمقه.

****